اعجاز التصميم القرآني

■■ يصرح القرآن الكريم بأن الخطة المثلى للانتفاع بآياته ينبغي أن تُدرك وفق أصل ترتيبه المنزَّل ، وإحكامه المعجز ، تصديقاً لقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدىً وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف : ٥٢) لأنه لو رُكِّب حسب ترتيب نزوله التاريخي لحصل خلل جسيم في أصل بناء وحدته الموضوعية ؛ التي هي إحدى معجزاته الباهرة .. ■■

بقلم : محمد بدر الدين [بن حسن]

ترتيب القرآن الكريم بوحي من الله تعالى

يقول الإمام المودودي رحمه الله في مقدمة تفسيره :

« لو جُمع القرآن على الترتيب الذي نزل عليه ؛ لما كان هذا الترتيب مجدياً ومفهوماً للعصور التي تلت عصر النبوة بدون أن يُضاف إلى القرآن تاريخ نزوله ، وتاريخ الظروف التي نزل فيها كل جزء من أجزائه ؛ كملحق للقرآن ؛ الأمر الذي كان ينافي الغرض الذي شاء الله لأجله أن يُدوّن كلامه ويُحفظ في مصحف .

والله سبحانه وتعالى كان يريد أن يجمع كلاماً خالصاً نقياً لا تشوبه شائبة من الزيادات ، ولا يمازجه كلام غيره ، يُرتب على ما هو عليه من الإيجاز والإعجاز معنىً وصورةً لتتيسر قراءته لكل فرد من الأفراد : الصغير والكبير ، الناشىء والكهل ، الرجل والمرأة ، الإنسان العادي والعالم الضليع ، في كل زمان ومكان ، في كل حال وواقع ، وليدرك جميع الناس على الأقل ـ مهما اختلفت درجات عقولهم ـ ماذا يريد الله منهم وما لا يريده منهم ؛ ومن الواضح أن لو أضيف إلى القرآن تاريخه المطول ـ وجعلت تلاوته أمراً لازماً مع تلاوة القرآن ـ لضاع هذا الغرض » .

تهافت المسلك الاستشراقي

على أن المستشرقين وأتباعهم بسبب نزعتي التعالي والغرور ، أو بسبب الجهل والخلط المقصودين ؛ اعتقدوا أنهم بإثارة الشكوك حول منهج الترتيب القرآني إنما يكونون قد وجهوا ضربة قاصمة لمصداقية القرآن ، وأصالته ، وعلى سبيل المثال : يزعم (بلاشير) في كتابه حول القرآن أن التنظيم المعتمد في مصحف عثمان تسبب في إحداث خلل لا دواء له في الترتيب التاريخي للنصوص المنزلة على محمد ﷺ ؛ لأن السور الطويلة موافقة للدعوة في المدينة بين سنة ٦٢٢ و٦٣٢ ؛ أما السور القصيرة والمتوسطة وهي نصوص من الفترة المكية على العموم فإنها ترد في نهاية المصحف ، ولقد شذ عن ذلك السورة الأولى ـ الفاتحة ـ والتي تعد بضع آيات فقط ، وهي مدانة بوضعها في مستهل المصحف في إقامة الصلوات ، ويمكننا القول إننا نقرأ القرآن بتاريخ معكوس !؟..

إن هذا الكلام فضلاً عن كونه مجرّد وصف لتكوين المصحف وبنيته الخارجية ؛ يتهرب من حقيقة النفاذ إلى صميم الموضوع المتعلق بوحدة القرآن الموضوعية ، وتناسق آياته ، ولا يلتفت إليها من قريب أو بعيد ؛ لأنها بحق أحد أهم أسرار القرآن ووجوهه الإعجازية .

إن آيات الكتاب ، ستكون وفق المقتضى الساذج الذي يطرحه (بلاشير) ، مجرد سرد تاريخي لِجُل وقائع السيرة النبوية لا غير ، وعلى سبيل المثال : لو سايرنا ذلك المنطق تصبح قراءتنا لسورة العلق على النحو التالي : قراءة الجزء الأول منها في صدر المصحف باعتبارها أول ما نزل من القرآن ؛ أما بقيتها فإنا سنلتمسها في أواسط سور المصحف لأنها نزلت بعده ببضع سنين !؟..

ولاستجلاء مظاهر التناسب والإتقان في آيات القرآن يحسن أن نعمد إلى سورة منه نلتمس من خلالها روعة التصميم القرآني لتفنيد مزاعم الاستشراق وكشف

■ إن الإبـــداع الكامل وتذوق ثمار القرآن إنما يتجليان في الحقيقـة عنـد الكشف عـلى روابط الآيـــات وتتبعهـا الأخـاذ .. ■

أباطيله . ولتكن هذه السورة أول ما نزل من كتاب الله رب العالمين .

تطبيقات على سورة العلق

من المعلوم أن آيات هذه السورة تبلغ تسع عشرة آية هي أول ما نزل من القرآن بإجماع جمهـور المفسرين - على أن الآيات الخمس الأولى منها نزلت في غار حراء بينما نزلت بقيتها في مقام آخر - ومن يقرأ صدر السورة وآخرها لا يشعر في الغالب بأن الفارق الزمني بينهما مهم وبعيد نسبياً . لقد تناولت الآيات الخمس الأولى رغم قصرها أغلب أصول العقيدة الإسـلامية حيث تكفَّلت ببيـان جميع الأجوبة الضرورية المتعلقة بالوجود وهي : تحـديد أصـل الإنسـان ﴿ مِن عَلَقٍ ﴾ .

- التعريف بخالق هذا الإنسان وجميع الأكوان ﴿ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ .
- بيان المطلوب الأول من الإنسان وهو العلم والقراءة ﴿ اقْرَأْ ﴾ .

وقد تكفلت السورة في شطرها الثاني ببيان وتحديد مرجع الإنسان ومصيره ﴿ إِنَّ إِلى رَبِّكَ الرُّجْعىٰ ﴾ إلى جانب قضايا ومسائل أخرىٰ ذات صلة عضوية كبيرة بمباحث الجزء الأول ، وهذا من صميم تنـاسب آيات الكتـاب المقدس الجامع لكل دقة وإتقان تصديقاً لقوله تبارك وتعالى ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَـتْ مِـنْ لَـدُنْ حَكِيـمٍ خَبِيـرٍ ﴾ (هود : ١) .

إن الإبداع الكامل وتذوق ثمار القرآن إنما يتجليان في الحقيقة عند الكشف على روابط الآيات وتتابعها الأخاذ ، وإن ممارسة هذه العملية سرعان مـا تقود بفضل الله إلى نتائج جد رائقة ؛ وعلى سبيل المثال يجد المرء حين يتابع آيات الجزء الأول معتمداً على قراءتين خطية ومحورية أنها تناولت بالتحليل والعرض جميع الأسئلة الوجودية الكبرىٰ التي خاض غمارها الفكر الفلسفي على مر العصـور مثل : مسـائل نشـأة الكون وحقيقة الإنسان ومصيره وعلاقته بما يحيط به من عوالم ، وقد أجاب القرآن عنها جميعاً في خمس آيات ! وعصارة هذا الكشف تصلح أن تكون - كما هو معلوم - أرضية فلسفية إسلامية تتناول معـالم - الأيديـولوجيـة الإسلاميـة - مستبعدة كل أنواع الجدل والتصورات الغريبة البعيدة عن جوهر الإسلام ، ويقاس على هذا المسلك كل الكشوف التي تستهدف استقراء آيـات الكتاب للحصول على إجابات رائدة وأصيلة في مختلف وجوه الحياة ومسالك المعرفة ، على أن الجزء الأول من سورة العلق لم يقتصـر على تأكيـد وإبراز الحقـائق المذكورة بل تعداها إلى وصف النوازع المكنونة في الذات البشرية باعتبار أن الإنسان محور الرسالة ومدار التكليف ، وقد اقتضى المنهج القرآني كشف مكامنه حتى تصله الرسالة في سلام ومعقولية ، وتتنـزل في واقعـه الطبيعي أحسن تنزيل ، وهذا وجه آخر من وجوه الارتباط والتناسب بين جزئي السورة .

إن سرد المعاني والأفكار جاء متتابعاً ومتعاقباً في سرعة وإيجاز في كامـل نواحي السورة حيث تعلق المطلب الأول بقراءة الوحي المنزل قصد تمثله وتبليغه إلى البشر كافة ، ولكن من الناس من لا يتقبل هدى ولا يستجيب إلى خيـر ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴾ بل من طغيانه أنه ينهىٰ عن الصلاح والرشاد ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهىٰ عَبْداً إِذَا صَلَّىٰ ﴾ ؛ إن مصير الجبابرة والطغاة معلوم لا محالة وهو أن يُسحبوا من نواصيهم إلى النار في ذُلّ وانكسار ﴿ لَنَسْفَعَنْ بِالنَّاصِيَةِ نَـاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴾ ولكن مسـار الرسـالة ينبغي ألا يتوقف أو يتعطل بسبب نماذج إنسانية تكفَّل القرآن نفسه بفضح عللها وعيـوبهـا ﴿ كَـلَّا لَا تُطِعْـهُ وَاسْجُـدْ وَاقْتَرِبْ ﴾ .

توافق المقاصد والأغراض

إن هذا التعاقب السريع في بيان الأحداث ومعالجة الأفكار يكشف عن ميزة أخرىٰ للخطاب القرآني : تتمثل في قدرته العجيبـة على جمـع أشتـات الكـلام المتفرقة النزول زماناً ومكاناً مع اختلاف المقاصد والأغراض لتكون في نهاية الأمر سورة تامة الأطراف ، وكاملة المعالم .

وبعبارات أخرى : إنه يعانق ويهيمن على جميع الأحداث ويوزعها كيفما شاء ، ولكن بحكمة دقيقة بحيث تتنزل ضمن وحدات موضوعية تربط بين معالجة الحدث وتقويمه ، كما في الرد على - أبي جهل - في هذه السورة مقترنة بمعاني السورة الإجمالية وأغراضها العامـة واجدة أنسب مكان في هندسة المصحف المتفرد .

إن هذا التخطيط والتصميم المزدوج ما هو إلا قطرة واحدة من بحر القرآن الزاخر الذي لا يمكن أن يصدر عن علم بشـر ولكن أكثر النـاس بـآيـات الله يجحدون .